تداول هيمنة الامبراطوريات على فلسطين

تداول هيمنة الامبراطوريات على فلسطين

2007-08-26

عاش اليهود بعد سقوط ملكهم في فلسطين مرحلة "السبي البابلي" في العراق، وهي الفترة التي يظهر أنهم بدأوا فيها بتدوين التوراة، أي بعد ما لا يقل عن سبعمائة سنة من ظهور موسى (ع)، ولم ينتهوا من تدوينها إلا أواخر القرن الثاني ق.م (بعد أكثر من أربعمائة سنة) وخلال هذه الفترة كان اليهود قد تركوا الالتزام بدينهم وقلدوا الدول التي يعيشون فيها بعبادة الأوثان".

ولاحت الفرصة لليهود للعودة مرة أخرى إلى فلسطين عندما أسقط الامبراطور الفارسي قورش الثاني الدولة البابلية الكلدانية 539 ق.م بمساعدة يهودية، وانتصر على ميديا، ومد نفوذه إلى فلسطين التي دخلت

في عصر السيطرة الفارسية 539 ـ 332 ق.م فقد سمح قورش بعودة اليهود إلى فلسطين كما سمح لهم بإعادة بناء الهيكل في القدس، غير أن القليل من اليهود انتهزوا الفرصة لأن الكثير من السبي أعجبتهم الأرض الجديدة، ولكن القلة المتشددة التي عارضت الاندماج حفظت بني إسرائيل من الاندثار. ويذكر أحد المؤرخين أن عدد الراجعين كانوا 42 ألفاً وهم أقلية بالنسبة للعدد الحقيقي. وقام هؤلاء اليهود ببناء الهيكل حيث اكتمل بناؤه في 515 ق.م. وفي منطقة القدس تمتع القدس بنوع من الاستقلال الذاتي تحت الهيمنة الفارسية، وهو حكم لم يكن يتجاوز نصف قطره عشرين كيلومتراً في أي اتجاه.

وفي سنة 332 ق.م احتل الإسكندر المقدوني فلسطين في إطار حملته الشهيرة التي احتل خلالها بلاد الشام ومصر والعراق وإيران وأجزاء من الهند. وقد ترك الاسكندر اليهود دون أن يمسهم، ومنذ ذلك التاريخ دخلت فلسطين في عصر السيطرة الهللينية الإغريقية الذي استمر حتى سنة 63 ق.م.

وبعد موت الإسكندر نشب نزاع بين قادته أدى إلى توزيع مملكته بينهم فكانت فلسطين (وباقي سوريا المحوفة من جنوب اللاذقية ولبنان وأجزاء من سوريا كدمشق ومصر وبرقة (ليبيا) وبعض جزر البحر الإيجي من نصيب القائد بطليموس، وسمي حكمه وحكم خلفائه من بعده بـ"عصر البطالمة" وقد استمر في فلسطين من 302 ـ 198ق.م، وقد عطف البطالمة على اليهود الذين كان يدير شؤونهم "الكاهن الأكبر". ثم إن السلوقيين (الذين كان نصيبهم بعد وفاة الإسكندر سوريا الشمالية وآسيا الصغرى والرافدين والهضبة الإيرانية) استطاعوا السيطرة على فلسطين إثر معركة "بانيون" التي حقق فيها الملك السلوقي انطيوخس الثالث نصراً كاملاً على البطالمة، وقد استمرت سيطرة السلوقيين على فلسطين حتى 63 ق.م.

وقد حاول السلوقيون صبغ اليهود بالصبغة الهللينية الإغريقية، فحاول انطيوخس الرابع صرف اليهود عن دينهم وأرسل سنة 167 ق.م أحد قادته وكلفه إلغاء الطقوس الدينية اليهودية والاستعاضة بالإله زيوس الأوليمبي عن الإله يهوه، وعيّن لهم كاهناً إغريقياً وثنياً في القدس، وحرّم الختان واقتناء الأسفار المقدسة وأوجب أكل لحم الخنزير، وبموجب هذه الأوامر انقسم اليهود إلى قسمين: قسم انصرف عن الشريعة مقتنعاً أو مكرهاً وهم "المتهلنون"أو "المتأغرقون" وأقاموا في القدس والمدن الإغريقية، وقسم آخر أقل عدداً هربوا من القدس وأطلق عليهم اسم حزب القديسيين.

وبشكل عام تأثر اليهود بالإغريقية فحلت الآرامية محل العبرية وأصبحت اليونانية لغة الطبقة المثقفة، ونشأ في اليهود جماعة تناصر اليونانيين تمكنوا من الوصول للحكم بقيادة كبير الكهنة "جيسون".

أما الذين هربوا من القدس "حزب القديسيين" فقد اعتمدوا لقيادتهم متاثياس (متابيبه) كبير عائلة

الأشموني‌ين والذي مات بعد فترة قصيرة، فخلفه ابنه يهوذا الملقب "المكابي" أي المطرقة، وقد ثار على السلوقيين وانتصر عليهم أكثر من مرة 166 ـ165 ق.م وانضم إليه قسم كبير من المترددين اليهود، وهذا دفع انطيوخس الرابع لإيقاف اضطهاد اليهود فسمح لهم بممارسة دينهم جنباً إلى جنب مع أنصار التأغرق. وعاد "المكابيون" إلى القدس في 25 كانون ثاني/ يناير 164 ق.م ومازال اليهود يحتفلون بهذه المناسبة تحت اسم عيد الأنوار "حانوكا".

تأسس لليهود بعد ذلك حكم ذاتي في القدس أخذ يتسع أو يضيق وتزداد مظاهر استقلاله أو تضعف حسب صراع القوى الكبرى على فلسطين (الرومان ـ البطالمة ـ السلوقيين..)، وأصبح الحكم وراثياً في ذرية يهوذا المكابي، وقد حكم المكابيون كـ"كبار كهنة" وسرعان ما سموا أنفسهم ملوكاً رغم أنهم كانوا تابعين ويدفعون الخراج للسلوقيين. وفي سنة 143 ق.م أعفى الامبراطور ديمتروس الثاني اليهود من الضرائب، وأعطى لقب حاكم لـ"سيمون" واتفق اليهود على اعتباره ملكهم وبذلك تأسس حكم ملكي اعترف به السلوقيون الذين "أعطوا" سيمون أيضاً حق صك النقود.

وفي عهد "الملك" اليهودي الكسندر جانيوس 103ـ76ق.م شمل حكمه شرق الأردن الذي سماه اليهود بيريا وتوغل إلى الساحل أيضاً وكادت حدود مملكته تلامس حدود مملكة سليمان. وقد حكمت بعده أرملته سالوم الكسندرا حتى 67 ق.م، ثم تخاصم ابناها على الحكم وتدخل العرب الأنباط في مساعدة هيركانوس الثاني ضد أخيه أريستوبولوس. وفي سنة 63 ق.م قضى القائد الروماني الشهير بومبي على "الدويلة" اليهودية، ونصّب هيركانوس الثاني كبيراً للكهنة، وحطم أسوار القدس، وبتر الأجزاء الأخرى من أيدي اليهود، وأبقى على استمرار الأسرة المكابية في ظل الرومان.

وفي الفترة 47ـ40 ق.م دخلت "المستعمرة" تحت سيطرة حاكم أيدومية "انتى بيتر" وفي 40 ق.م هاجم الفرس فلسطين ونصبوا "أنتي جونوس" أخو هركانوس الثاني حاكماً وكبيراً للكهنة، استمر حكم "أنتي جونوس" ثلاث سنوات وكان هو آخر حكام الأسرة المكابية، وفي سنة 37 ق.م انتصر الرومان على الفرس. واستعادوا السيطرة على فلسطين ونصبوا "هيرودس" ابن أنتي بيتر حاكماً، ورغم أن "هيرودس" قد تهوّد وحاول استرضاء اليهود إلا أنه كان مبغوضاً من قبلهم، وكان هو بشكل عام طاغية ظالماً شديد الولاء للرومان. وقد قام بتجديد الهيكل فضاعف مساحته ورفع سطحه وجعله على جانب عظيم من الإتقان والهندسة.

استمر حكم هيرودس حتى سنة 4 ق.م وعاصره من الأنبياء زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما عاصرته مريم بنت عمران عليها السلام، وفي آخر أيامه ولد المسيح (ع).

كان زكريا (ع) يعمل نجاراً، وقد تولى كفالة مريم بنت عمران، ورزقه الله سبحانه _ بعد أن بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً _ ولداً هو يحيى (ع)، وكان لزكريا ويحيى جهود كبيرة في دعوة بني إسرائيل للهداية الحق.

وقد جاءت البشارة بيحيى بأنه سيكون {سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين}، أي يسود قومه ويفوقهم ويحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ويكون نبياً، فلما ولد يحيى وبلغ السن الذي يؤمر فيه قال له تعالى {يا يحيى خذ الكتاب بقوة}، أي خذ ما في كتاب الله بجد واجتهاد وآتاه الله الحكمة ورجاحة العقل منذ صغره {وآتيناه الحكم صبياً}، وقام يحيى بواجبه في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتهر في الأدبيات المسيحية باسم "يوحنا المعمدان" والمعمدان نسبة إلى ما ذكر أنه كان يعمّد الناس (يغسلهم بالماء) لتطهيرهم من الخطايا، وكان يحيى يبشر بقدوم المسيح (ع).

وقد دفع يحيى (ع) حياته ثمناً لموقفه الصلب من رغبة هيرودس بالزواج من ابنة أخيه (وقيل ابنة أخته) حين أنكر ذلك، وكانت هذه الفتاة واسمها (هيروديا) بارعة الجمال، فحقدت أم الفتاة والفتاة على يحيى، وتزينت البنت ودخلت على هيرودس فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فطلب منها أن تتمنى فتمنت رأس يحيى!! فاستجاب لها وقتل يحيى وقدم رأسه على طبق هدية لهذه الفاجرة!! {وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً}.

ولم يكتف هيردوس بجريمته هذه إذ إنه قتل زكريا (ع) أيضاً حيث نشره بالمنشار!! لأنه دافع عن ابنه يحيى وعارض صحة الزواج لمانع القرابة.

أما مريم _ سيدة نساء العالمين _ عليها السلام فقد ولدت قبل يحيى (ع)، وكانت أمها قد نذرتها وهي جنين في بطنها في سبيل الله {فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسناً وكفلها زكريا} واصطفى الله مريم {وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين}. وقدر الله سبحانه أن يجري معجزاته العظيمة بأن تلد مريم ابنها المسيح من دون أب وأن يتم ذلك بكلمة من الله "كن". ونقف هنا لنقرأ النص القرآني الموجز حول قصة المسيح ورسالته {إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في

بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين..}.

ولد عيسى بن مريم (ع) حوالي 4 ق.م في بيت لحم، وتذكر الروايات أن مريم (ع) هربت بعيسى (ع) مع يوسف "النجار" إلى مصر خوفاً على ابنها من ظلم هيردوس وبطشه، ثم ما لبثوا أن عادوا بسرعة إلى مدينة الناصرة حيث عاش طفولته وشب على عوده هناك ولذلك عرف باسم "يسوع الناصري" وسمى أتباعه "النصارى".

لقد كان عيسى بن مريم آية من آيات الله حسم حقيقة أمره أمام الناس وهو رضيع في مهده فأكد أنه عبد الله وبشرهم بنبوته {قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً}.

وهناك في الأرض المباركة فلسطين قام عيسى (ع) بواجب الدعوة إلى الله وبذل جهوداً كبيرة في هداية بني إسرائيل، وبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء محمد (ص) {ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} وعلى الرغم من المعجزات التي أجراها الله على يديه وما تضمنته رسالته من حق ونور إلا أن بني إسرائيل جحدوا وأنكروا وناصبوه العداء، ولم يؤمن به إلا عدد ضئيل.

ويذكر التاريخ أنه لما جاء عيد الفصح من سنة 30 م ذهب المسيح إلى أورشليم (القدس) وزار الهيكل واستنكر وجود الصيارفة والباعة، وفي إنجيل متى (21/12 ـ 13) "ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام، وقال لهم مكتوب أن بيتي ـ هكذا النص ـ بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص".

وقد حقد اليهود والوجهاء على المسيح، وفي إنجيل لوقا (19/47) "وكان يعمل كل يوم في الهيكل وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجود الشعب يطلبون أن يهلكوه"، وسارع مجلس اليهود الديني "السنهدرين" إلى الاجتماع وقرر القبض على المسيح، وأصدر في الحال حكماً بإعدامه بتهمة التجديف والخروج عن الدين.

ثم إنهم ساقوه إلى الوالي الروماني ـ في ذلك الوقت ـ بيلاطس البنطي الذي يحق له وحده تنفيذ الإعدام، ولم يجد هذا جرماً من المسيح يوجب قتله فقامت قيامة اليهود، وأخذوا يصرخون بصوت واحد، اصلبه، اصلبه "دمه علينا وعلى أولادنا". وقد اضطر كارهاً إلى الموافقة على إعدامه، غير أن الله سبحانه أدركه برحمته فرفعه إليه في الوقت الذي ظن فيه اليهود أنهم قتلوه {وما قتلوه وما صلبوه

ولكن شبه لهم.. بل رفعه ا إليه }.

وطويت هذه الصفحة من تاريخ الصراع بين الحق والباطل على الأرض المقدسة، فقد كذب بنو إسرائيل بآخر نبي أرسل إليهم واتهموه بالسحر وتآمروا عليه، وآمن بعيسى الحواريون وأخذوا ينشرون دعوته من بعده ويلاقون في سبيلها الاضطهاد والأذى. واستمر الحواريون في دعوة اليهود وكانوا يخطبون في الهيكل، ولما تضاعف عدد النصارى بعد بضع سنوات خاف اليهود من انتشار الدعوة وطلبوا القبض على بطرس وغيره لمحاكمتهم أمام "السهندرين" إلا أن المجلس اكتفى بجلدهم وأطلق سراحهم، وهرب المهتدون الجدد إلى السامرة وقيسارية وأنطاكية فأنشأوا الجماعات المسيحية، ووصل بطرس إلى روما حيث أنشأ جماعة مسيحية وكان يركز في دعوته على اليهود، أما بولس فكان يدعو الوثنيين كما يدعو اليهود واستخدم في دعوته المصطلحات والمفاهيم الفلسفية لتفسير المسيحية بما يتلاءم مع الثقافة الهلنستية السائدة آنذاك. وانتهى الأمر ببولس وبطرس بأن حكم عليهما بالإعدام في عهد الامبراطور الروماني نيرون سنة 64 م.